(٦)

الأولويات .. في مجال العمل

أولوية العمل الدائم على العمل المنقطع

لقد بيَّن القرآن الكريم، كما وضَّحت السُّنَّة الشريفة: أن الأعمال عند الله متفاوتة المراتب، وأن هناك الأفضل والأحب إلى الله تعالى من غيره، يقول الله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللهِ، لا يَسْتَوُونَ عِندَ اللهِ، وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللهِ، وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [التوبة: ١٩ - ٢٠]، وصحَّت الأحاديث: «أن الإيمان بضع وستون - أو بضع وسبعون - شُعْبة، أعلاها: لا إله إلا الله، وأدناها: إماطة الأذى عن الطريق»(١)، فدلَّ هذا على أن هذه الشُّعَب متفاوتة في القيمة والدرجة.

وهذا التفاوت ليس اعتباطياً، ولكنه مبني على معايير وأسس ينبغي أن ترعى. وهذا ما نبحث عنه هنا.

ومن هذه المعايير:

أن يكون العمل أدوم: ومعنى الأدوم: أن يداوم عليه فاعله ويواظب عليه، بخلاف العمل الذي يقع منه بعض المرات في بعض الأوقات.

وفي هذا جاء الحديث الصحيح: «أحب العمال إلى الله أدومها وإن قلَّ»(٢).

وروى الشيخان عن مسروق قال: سألت عائشة رضي الله عنها: أي العمل كان أحب إلى النبي ﷺ؟ قالت: الدائم(٣).

وعن عائشة أيضاً: أن النبي ﷺ دخل عليها، وعندها امرأة، قال: «مَن هذه»؟ قالت: فلانة تذكر من صلاتها (تعني أنها تُكثر جداً من الصلاة) قال: «مَهْ! عليكم بما تطيقون، فوالله! لا يمل الله حتى تملّوا».

(١) الحديث رواه الجماعة عن أبي هريرة: البخاري بلفظ: «بضع وستون»، ومسلم: «بضع وسبعون»، وفي رواية: «أو بضع وستون»، والترمذي: «بضع وسبعون»، والنسائي: كلهم في كتاب «الإيمان»، وأبو داود في «السنّة»، وابن ماجه في «المقدمة».

(٢) متفق عليه، عن عائشة (صحيح الجامع الصغير: ١٦٣).

(٣) متفق عليه - اللؤلؤ والمرجان (٤٢٩).

قالت عائشة: وكان أحب الدين إليه ما داوم عليه صاحبه[1].

و«مَـهْ» كلمة زجـر عن تكلف المشقـة الشديدة في العبـادة، وتحمـيل النفس فوق طاقتها. وذلك أنه بالمداومـة على القليل تستمر الطاعة وتكثر بركتهـا، بخلاف الكثير الشاق، وربما ينمو القليل الدائم حتى يزيد على الكثير المنقطع أضعافاً كثيرة. ولهـذا استقر في فِطَر الناس في سائر الأمور: أن القليل الدائم خير من الكثير المنقطع.

وهذا ما جـعل النبي ﷺ يُحذِّر من الغلو في الدين والتشـدد فيه، خشـية أن يأتي عليه يوم يمل فيه العمل، أو تضعف طاقـته عنه، بحكم الضعف البشري، فينقطع في وسط الطريق، فإن المُنْبَتَّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى.

ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «عليـكم من الأعمال بما تطيقون، فإن الله لا يمل حتى تملوا»[2].

وقـال: «عليكـم هَدْياً قـاصـداً (أي مـتـوسـطـاً) فـإنـه مَن يشـادّ هـذا الديـن يغلبه»[3].

وسبب هذا الحديـث - كما رواه بريدة - قال: خرجت ذات يـوم لحاجة، وإذا أنا بالنبي ﷺ يمشي بين يديّ، فأخذ بـيدي، فانطلقنا نمشي جميـعاً، فإذا نحن بين أيدينا برجل يصلي يكثـر الركوع والسجـود! فقال النبي ﷺ: «أتـراه يرائي»؟! فقلت: الله ورسوله أعلـم! فترك يده من يدي، ثـم جمع يديه، فجـعل يصوبهـما ويرفـعهـما، ويقول: عليكم هدياً قاصداً. . . الحديث[4].

وعن سـهل بن حنيف أن رسول الله ﷺ قـال: «لا تشـددوا على أنفسكم، فـإنما هلك مَن كـان قبلكم بتـشديدهم على أنفـسهم، وسـتجـدون بقاياهم في الصـوامع والديَّارات»[5].

* * *

(١) متفق عليه - المصدر نفسه (٤٤٩).

(٢) متفق عليه عن عائشة أيضاً: صحيح الجامع الصغير (٤٠٨٥).

(٣) أحمد والحاكم والبيهقي عن بريدة - المصدر السابق (٤٠٨٦).

(٤) ذكره الهيثمي في المجمع: ١/ ٦٢، وقال: رواه أحمد ورجاله موثقون.

(٥) قال الهـيثـمي: رواه الطبراني في الأوسط والكبـير، وفيـه عبـد الله بن صالح كاتب الليـث، وثقه جماعة، وضعَّفه آخرون (المجمع: ١/ ٦٢).

أولوية العمل المتعدي النفع على القاصر

ومن فقه الأولويات في ترجيح العمل: أن يكون أكثر نفعاً من غيره. وعلى قدر نفعه للآخرين يكون فضله وأجره عند الله. ولهذا كان جنس أعمال الجهاد أفضل من جنس أعمال الحج، لأن نفع الحج لصاحبه، ونفع الجهاد للأمه، وفي هذا جاء قول الله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللهِ، لا يَسْتَوُونَ عِندَ اللهِ، وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ* الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللهِ، وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [التوبة: ١٩ - ٢٠].

وكان الجهاد في سبيل الله أفضل عند الله وأعظم أجراً من الانقطاع للعبادة، مرات ومرات.

قال أبو هريرة: مرّ رجل من أصحاب رسول الله ﷺ بشعْب فيه عيينة (عين صغيرة) من ماء عذبة، فأعجبته، فقال لو اعتزلتُ الناس فأقمتُ في هذا الشعْب؟! (أي للعبادة) ولن أفعل حتى أستأذن رسول الله ﷺ. فذكر ذلك لرسول الله، فقال: «لا تفعل، فإن مقام أحدكم في سبيل الله أفضل من صلاته في بيته سبعين عاماً، ألا تحبون أن يغفر الله لكم، ويُدخلكم الجنة؟ اغزوا في سبيل الله، مَن قاتل في سبيل الله فواق ناقة، وجبت له الجنة»(١).

وفواق الناقة: ما بين رفع يدك عن ضرعها وقت الحلب ووضعها.

ومن هنا جاء تفضيل العلم على العبادة في جملة أحاديث، لأن منفعة العبادة للعابد، ومنفعة العلم للناس.. من هذه الأحاديث:

«فضل العلم أحب إليَّ من فضل العبادة، وخير دينكم الورع»(٢).

---

(١) رواه الترمذي وحسَّنه (١٦٥٠)، والحاكم وصحَّحه على شرط مسلم ووافقه الذهبي: ٢/ ٦٨.

(٢) رواه البزار والطبراني في الأوسط والحاكم عن حذيفة، والحاكم أيضاً عن سعد وصحَّحه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي: ١/ ٩٢، وذكره في صحيح الجامع الصغير (٤٢١٤).

«فضل العالِم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب»[١].

«فضل العالِم على العابد كفضلي على أدناكم»[٢].

ويزداد فضلَ العلم إذا علَّمه صاحبه لغيره، وتكملة الحديث السابق:

«إن الله وملائكته وأهل السموات والأرض حتى النملة في جحرها، وحتى الحوت ليُصلُّون على مُعلِّم الناس الخير»[٣].

وفي الصحيح: «خيركم مَن تعلَّم القرآن وعلَّمه»[٤].

ومن هنا قرر الفقهاء: أن المتفرغ للعبادة لا يأخذ من الزكاة، بخلاف المتفرغ للعلم، لأنه لا رهبانية في الإسلام، ولأن تفرغ المتعبد لنفسه، وتفرغ طالب العلم لمصلحة الأمة.

وعلى قدر مَن ينتفع بعلمه ودعوته يكون أجره ومثوبته.

يقول ﷺ: «مَن دعا إلى هدى، كان له من الأجر مثل أُجور مَن تبعه، لا ينقص من أُجورهم شيء»[٥].

وهكذا يكون العمل الأفضل ما كان أكثر نفعاً للآخرين.

وجاء في الحديث: «أحب الناس إلى الله أنفعهم، وأحب الأعمال إلى الله عَزَّ وجَلَّ: سرور تُدخله على مسلم، أو تكشف عنه كربة، أو تقضي عنه دَيْناً، أو تطرد عنه جوعاً، ولأن أمشِيَ مع أخي المسلم في حاجة أحب إليَّ من أن أعتكف في المسجد شهراً»[٦].

وهكذا كان كل عمل يتعلق بإصلاح المجتمع ونفعه أفضل من العمل المقصور النفع على صاحبه. وفي هذا قال ﷺ: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة؟ إصلاح ذات البَيْن، فإن فساد ذات البَيْن هي الحالقة»[٧].

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية عن معاذ (صحيح الجامع الصغير: ٤٢١٢)، وهو جزءمن حديث أبي الدرداء في فضل العلم، رواه أحمد وأصحاب السنن وابن حبان - المصدر نفسه (٦٢٩٧).

(٢) جزء من حديث رواه الترمذي عن أبي أمامة وقال: حسن صحيح غريب (٢٦٨٦) وهو في صحيح الجامع الصغير (٤٢١٣).

(٣) جزء من حديث أبي أمامة السابق.

(٤) رواه البخاري عن عثمان.

(٥) رواه مسلم عن أبي هريرة.

(٦) رواه ابن أبي الدنيا في قضاء الحوائج والطبراني عن ابن عمر، وحسَّنه في صحيح الجامع الصغير (١٧٦).

(٧) رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن حبان - المصدر السابق (٢٥٩٥).

ويروى: «لا أقول: تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين»!!

ومن هنا جاء فضل عمل الإمام العادل على عبادة غيره: عشرات السنين؛ لأنه في اليوم الواحد، قد يصدر من القرارات ما ينصف آلاف المظلومين أو ملايينهم، ويرد الحق الضائع إلى أهله، ويعيد البسمة إلى شفاه حُرِمت منها. وقد يصدر من العقوبات ما يقطع سبيل المجرمين، ويستأصل شأفَتهم، أو يفتح لهم باب الهداية والتوبة.

وقد يهيىء للناس من الأسباب، ويفتح لهم من الأبواب: ما يرد الشاردين إلى الله، ويهدي الضالين إلى طريقه، ويعين المنحرفين على الاستقامة.

وقد يقيم من المشروعات البناءة والنافعة: ما يساعد على إيجاد عمل لكل عاطل؛ وخبز لكل جائع، ودواء لكل مريض، وبيت لكل مشرّد، وكفاية لكل محتاج.

وهذا ما جعل كثيراً من علماء السّلَف يقولون: لو كانت لنا دعوة مستجابة لدعوناها للسلطان، فإن الله يصلح بصلاحه خلقاً كثيراً.

ومن هنا روى الطبراني عن ابن عباس؛ أن النبي ﷺ قال: «يوم من إمام عادل أفضل من عبادة ستين سنة» وحسّن إسناده المنذري في (الترغيب والترهيب)(١).

وخالفه الهيثمي في ذلك(٢)، ولكن يؤيده حديث الترمذي عن أبي سعيد: «إن أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأدناهم منه مجلساً: إمام عادل»، وقال الترمذي: حسن غريب(٣).

كما يقويه حديث أبي هريرة الذي رواه أحمد وابن ماجه وحسَّنه الترمذي، وصحّحه ابن خزيمة وابن حبان: «ثلاثة لا تُرَد دعوتهم: الصائم حتى يفطر، والإمام العادل، ودعوة المظلوم»(٤).

وحديثه في الصحيحين: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل...» الحديث.

* * *

---

(١) قال المنذري في الترغيب: رواه الطبراني في الكبير والأوسط وإسناد الكبير حسن.

(٢) انظر: مجمع الزوائد: ١٩٧/٥ ، ٢٦٣/٦ .

(٣) رواه في الأحكام (١٣٢٩).

(٤) وحسَّنه الحافظ ابن حجر أيضاً، وصحّحه الشيخ شاكر في تخريج المسند برقم (٨٠٣٠)، وأطال في تخريجه، ويشهد له أحاديث أخرى ثبتت في أفراده الثلاثة. انظر كتابنا: «المنتقى من الترغيب والترهيب» حديث (٥١٣)، طبعة دار الوفاء.

أولوية العمل الأطول نفعاً والأبقى أثراً

وإذا كان امتداد النفع واتساع دائرته مكاناً، مطلوباً ومفضَّلاً عند الله ورسوله، فكذلك امتداده وبقاؤه زماناً، فكلما كان النفع به أطول زمناً، كان أفضل وأحب إلى الله.

ومن أجل ذلك فُضِّلت الصدقة بما يطول النفع به، مثل منيحة العنز، أو طروقة الفحل (الناقة التى يطرقها الفحل)، ونحوها، مما يمكن أن تدر على المتصدَّق عليه من لبنها له ولعياله، ما ينفعه الله به سنين عدداً.

والمثل الصيني يقول: بدل أن تهدي إلى الفقير أكلة من السمك، اهد له شبكة يصطاد بها السمك.

وفي الحديث: «أفضل الصدقات: ظل فسطاط (أي خيمة) في سبيل الله عَزَّ وجَلَّ، أو منيحة خادم في سبيل الله، أو طروقة فحل في سبيل الله»(١).

«أربعون خصلة، أعلاهن منحة العنز، لايعمل عبد بخصلة منها، رجاءثوابها، وتصديق موعودها: إلا أدخله الله تعالى بها الجنة»(٢).

ومن هنا كان فضل «الصدقة الجارية» التي يستمر نفعها وأثرها بعد وفاة المتصدِّق بها، مثل الأوقاف الخيرية، التي عرفها المسلمون منذ عصر النبوة، وتميَّزت الحضارة الإسلامية بسعتها وكثرتها وتنوعها، حتى استوعبت كل جوانب البر، ونواحي الخير، مما شمل كل ذوي الحاجة من بني الإنسان، بل امتد خيرها إلى الحيوان.

وقد جاء في الحديث الصحيح: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث:

---

(١) رواه أحمد والترمذي عن أبي أمامة، والترمذي عن عدي بن حاتم، وحسَّنه في صحيح الجامع الصغير (١١٠٩).

(٢) رواه البخاري وأبو داود عن عبد الله بن عمرو - المصدر المذكور (٧٩١).

صدقة جارية، أو علم يُنتفع به، أو ولد صالح يدعو له»[1].

وأورد حديث آخر نماذج وأمثلة لهـذه الصدقة الجارية، فعدَّ منهـا سبعًا. وذلك في قوله: «إن مما يلحق المؤمن من عـمله وحسناته بعد موته: علمـاً علَّمه ونشره، وولداً صالحاً تـركه، أو مصحـفاً ورَّثه، أو مسجـداً بناه، أو بيتاً لابن السبـيل بناه، أو نهراً أجراه، أو صدقة أخرجها من ماله في صحته وحياته، تلحقه من بعد موته»[2].

وإذا كان عمر الإنسـان قصيراً ومحدوداً، فمن فـضل الله عليه أن أتاح له الفرصة ليطيل من عمره، ببعض الأعمال التي يطول أمدها، ويستمر أثرها، فيحيا وهو ميت، ويبقى بصالح عمله، وربما لم يبق من جسده شيء. ولله در شوقي حين قال:

دقَّـــات قـلب المرء قـــائلـة له: إن الحـــيـــــاة دقـــائـق وثوان!
فـــارفع لنـفسك بعـد مـــوتك ذكـرها فـــالذِكْـــر للإنـســـان عـــمـــر ثان!

* * *

(1) رواه مسلم والبخاري في الأدب المفرد، وأبو داود والترمذي والنسائي عن أبي هريرة - -المصدر نفسه (٧٩٣).

(2) قال الحـافظ المنذري: رواه ابن ماجه بإسناد حسن والـبيهقي، ورواه ابن خـزيمة في صحيحـه بنحوه (انظر كتابنا المنتقى من الترغيب والترهيب حديث ٧٥)، وابن ماجه (٢٤٢).

أولوية العمل في زمن الفتن

ومن الأولويات المطلوبة: أن يكـون العمل في أزمـان الفتن والمحن والشـدائد التي تحيق بالأُمة، فالعمل الصالح هنا دليل الـقوة في الدين، والصلابة في اليقين، والثبات على الحق. كما أن الحـاجة إلى صالح العمل في هذا الزمن أشد من الحـاجة إليه في سائر الأزمان.

ففي الصحيح: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف»(١).

وأكّـد هذا قوله عليـه الصـلاة والسلام: «أفـضل الجهـاد كلمـة حق عند سلطان جائر»(٢).

وقوله: «سيـد الشهداء حمزة بن عـبد المطلب، ورجل قام إلى إمام جـائر، فأمره ونهاه فقتله»(٣).

«أفضل الشـهداء: الذين يقـاتلون في الصف الأول، فلا يلفـتون وجـوههم حتى يُقتلـوا، أولئك يتلبّطون (أي يتمـرغون) في الغُرف الـعلا من الجنة، يضحـك إليهم ربك، فإذا ضحك ربك إلى عبد في موطن فلا حساب عليه»(٤).

ومن أجل هذا كان فـضل الثابت على دينه، في أزمـان الفتن، وأيام المحن، حتى جعل بعض الأحـاديث: المستمسك بدينـه في أيام الصبر، له أجر خـمسين من بعض الصحابة.

فقد روى أبو داود والتـرمذي وابن ماجه في سننـهم عن أبي أُمية الشعـباني قال: سـألت أبا ثعلبـة الخـشني قـال: قلت: يا أبا ثعلبـة ! كـيف تقـول في هذه الآيـة: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ، لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ، إِلَى اللهِ مَـرْجِعُكُمْ جَمِيعاً﴾؟

---

(١) رواه أحمد ومسلم وابن ماجه عن أبي هريرة (صحيح الجامع الصغير: ٦٦٥٠).

(٢) ابن ماجه عن أبي سعيد، وأحمد وابن ماجه والطبـراني والبيهقي في الشُعَب عن أبى أمامة، وأحمد والنسائي والبيهقي عن طارق بن شهاب - المصدر نفسه (١١٠٠).

(٣) رواه الحاكم والضياء عن جابر، وحسَّنه في صحيح الجامع الصغير (٣٦٧٦).

(٤) أحمد وأبو يعلي والطبراني عن نعيم بن همار (صحيح الجامع الصغير: ١١٠٧).

[المائدة: ١٠٥]. قال: أما والله! لقد سألتَ عنها خبيراً، سألتُ عنها رسول الله ﷺ فقال: «ائتمروا بالمعروف، وانتهوا عن المنكر، حتى إذا رأيتَ شحاً مطاعاً، وهوىً متبعاً، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه(١) فعليك بنفسك، ودع عنك العوامّ، فإن مِن ورائكم أياماً، الصبر فيهن مثل القبض على الجمر، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عمله» رواه أبو داود والترمذي، وقال: حديث حسن غريب، زاد أبو داود والترمذي: قيل: يا رسول الله؛ أجر خمسين رجلاً منا أو منهم؟ قال: «بل أجر خمسين منكم»(٢).

والخطاب في الحديث لا يشمل السابقين الأوَّلين من المهاجرين والأنصار، ومن أهل بدر، وأهل بيْعة الرضوان، وأمثالهم، فهؤلاء لا يطمع أحد بعدهم في بلوغ منزلتهم، ولكنه يستثير همم العاملين للإسلام اليوم في أجواء الفتن المتلاحقة، بما وعدهم الله على لسان رسوله من الأجر المضاعف: أجر خمسين في عصور النصر والازدهار. وقد تحقق ما نبأ به الرسول الكريم، فأصبح العامل لدينه، الصابر عليه، كالقابض على الجمر، فهو يُضطهَد في الداخل، ويُحارَب من الخارج، وتجتمع كل قوى الكفر على عداوته والكيد له، وإن اختلفت فيما بينها، والله من ورائهم محيط، ويستجيب عملاء الحكام وضعفاؤهم لكيد الأعداء في ضرب العاملين للإسلام، وتضييق الخناق عليهم، والتنكيل بهم، وتشريدهم كل مشرد، ما وجدوا إلى ذلك سبيلاً.

وعن معقل بن يسار رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «عبادة في الهرج كهجرة إليّ»(٣).

«الهرج» هو: الاختلاف والفتن، وقد فُسِّر في بعض الأحاديث بالقتل، لأن الفتن والاختلاف من أسبابه، فأُقيم المسبّب مقام السبب.

* * *

(١) زاد عند ابن ماجه هنا: «ورأيت أمراً لا يدان لك به» أي رأيت من الفساد ما لا قِبَل لك به ولا قدرة لك عليه، وهي زيادة مهمة في الحديث، تدل على أن الإنسان لا يدع الأمر والنهي إلا عندما يعجز، ويكون التغيير أكبر من طاقته وجهده.

(٢) رواه أبو داود في الملاحم (٤٣٤١)، والترمذي في التفسير (٣٠٦٠)، وقال: حسن غريب، وابن ماجه في الفتن (٤٠٤١).

(٣) رواه أحمد ومسلم، والترمذي، وابن ماجه (صحيح الجامع الصغير وزيادته: ٣٩٧٤).

أولوية عمل القلب على عمل الجوارح

ومن مرجحات العمل في ميزان الدين: أن يكون من أعمال القلوب الباطنة، فإنها مفضَّلة على أعمال الجوارح الظاهرة.

أولاً: لأن الأعمال الظاهرة نفسها لا تُقبل عند الله تعالى ما لم يصحبها عمل باطن هو أساس القبول، وهو النية، كما قال ﷺ: «إنما الأعمال بالنية - أو بالنيات»(١).

والمراد بالنية: النية المجردة عن الرغبات الذاتية والدنيوية، الخالصة لله تعالى، فلا يقبل الله من العمل إلا ما كان خالصاً لوجهه. كما قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: ٥].

وقال ﷺ: «إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً، وابتُغِيَ به وجهُه»(٢).

وفي الحديث القدسي عن الله تبارك وتعالى قال: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، مَن عمل عملاً أشرك فيه غيري تركته وشركه»، وفي لفظ: «فهو للذي أشرك وأنا منه بريء»(٣).

وثانياً: لأن القلب هو حقيقة الإنسان، ومدار صلاحه أو فساده عليه. وفي الصحيحين أنه ﷺ قال: «ألا إنَّ في الجسد مُضْغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»(٤).

وبيَّن النبي ﷺ أن القلب هو موضع نظر الله تعالى، وعمله هو المعتبرَ، وذلك في قوله: «إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم»

---

(١) متفق عليه عن عمر (اللؤلؤ والمرجان: ١٢٤٥)، وهو أول حديث في صحيح البخاري.

(٢) رواه النسائي عن أبي أمامة، وحسَّنه في صحيح الجامع الصغير (١٨٥٦).

(٣) رواه باللفظ الأول مسلم عن أبي هريرة، وباللفظ الآخر ابن ماجه.

(٤) متفق عليه عن النعمان بن بشير، وهو جزء من حديث: «الحلال بيِّن والحرام بيِّن..» (انظر اللؤلؤ والمرجان: ١٠٢٨).

وأشار بأصابعه إلى صدره[1]. والمراد: نظر القبول والرعاية.

وبيَّن القرآن الكريم: أن النجاة في الآخرة، والفوز بالجنة، إنما تتم لمن سلم قلبه من الشرك والنفاق والأمراض المهلكات، وأناب قلبه إلى الله عزَّ وجلَّ. يقول تعالى على لسان نبيه الخليل إبراهيم: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ * يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٧ - ٨٩].

وقال تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ * هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ * مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٣١ - ٣٣].

فالنجاة من خزي يوم القيامة لمن أتى الله بقلب سليم.

والظفر بالجنة لمن جاء ربه بقلب منيب.

وتقوى الله تعالى - التي هي وصية الله للأولين والآخرين، وهي أساس الفضائل والخيرات والمكاسب في الدنيا والآخرة - هي في حقيقتها ولبها أمر قلبي، ولذا قال عليه الصلاة والسلام في حديث له: «التقوى ههنا» وأشار إلى صدره. ثلاثاً، أي كرر الكلمة ثلاث مرات مع الإشارة الحسية بيده إلى صدره ليثبّتها في العقول والأنفس.

وإلى ذلك أشار القرآن بإضافة التقوى إلى القلوب في قوله: ﴿ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

وكل الأخلاق والفضائل والمقامات الربانية التي عني بها رجال السلوك، وأهل التصوف، ودعاة التربية الروحية: جميعها أُمور تتعلق بالقلوب: من الزهد في الدنيا، وإيثار الآخرة، والإخلاص لله، ومحبة الله تعالى ومحبة رسوله، والتوكل على الله، والرجاء في رحمته، والخشية من عذابه، والشكر لنعمائه، والصبر على بلائه، والرضا بقضائه، والمراقبة له سبحانه، والمحاسبة للنفس... ونحوها. وهي إنما تمثل جوهر الدين وروحه، ومَن لم يكن له حظ منها، فقد خسر نفسه، وخسر دينه.

على نفسه فليبك مَن ضاع عمره ... وليس له منها نصيب **ولا** سهم!

---

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة (٢٥٦٤)، وقد تقدم.

يروي أنس عنه ﷺ: «ثلاث مَن كُنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه ممّا سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر، كما يكره أن يُقذف في النار»(١).

«لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين»(٢).

وعن أنس أيضاً: أن رجلاً سأل النبي ﷺ: متى الساعة يا رسول الله؟ قال: «ما أعددتَ لها»؟ قال: ما أعددتُ لها من كثير صلاة ولاصوم ولا صدقة، ولكني أحب الله ورسوله! قال: «أنت مع مَن أحببت»(٣).

وأكد هذا حديث أبي موسى: قيل للنبي ﷺ: الرجل يحب القوم، ولمّا يلحق بهم؟ قال: «المرء مع مَن أحب»(٤).

فدلت هذه الأحاديث على أن حب الله تعالى وحب رسوله وحب عباده الصالحين من أعظم القربات إلى الله تعالى، وإن لم يكن معها كثير صلاة ولا صيام ولا صدقة.

وما ذاك إلا لأن هذا الحب النقيّ عمل من أعمال القلوب، التي لها منزلتها عند الله عَزَّ وجَلَّ.

ولأجل هذا المعنى كان بعض الأكابر يقول:

أحب الصالحين ولستُ منهم عساني أن أنال بهم شفاعة
وأكره مَن بضاعته المعاصي وإن كنا سواء في البضاعة!

فالحب لله، والبغض لله من كمال الإيمان، وهما من أعمال القلوب.

وفي الحديث: «مَن أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله فقد استكمل الإيمان»(٥).

---

(١) متفق عليه عن أنس (اللؤلؤ والمرجان: ٢٦). (٢) متفق عليه عن أنس أيضاً - المصدر نفسه (٢٧).

(٣) متفق عليه عن أنس أيضاً - المصدر نفسه (١٦٩٣).

(٤) متفق عليه عن أبي موسى - المصدر نفسه (١٦٩٤).

(٥) رواه أبو داود في كتاب السنّة عن أبي أمامة (٤٦٨١)، وزاد في الجامع الصغير نسبته إلى الضياء (صحيح الجامع: ٥٩٦٥).

«أوثق عُرَا الإيمانِ: الموالاة في الله، والمعاداة في الله، والحب في الله، والبغض في الله عَزَّ وجَلَّ»(١).

ولهذا نعجب من تركيز بعض المتدينين عامة، والدعاة خاصة، على بعض الأعمال والآداب التي تتعلق بالظاهر أكثر من الباطن، وبالشكل أكثر من الجوهر، مثل تقصير الثوب، وإحفاء الشارب، وإعفاء اللحى، وصورة حجاب المرأة، وعدد درجات المنبر، وطريقة وضع اليدين أو القدمين أثناء القيام في الصلاة، إلى غير ذلك من الأُمور التي تتعلق بالصورة والشكل أكثر مما تتعلق بالجوهر والروح، فهذه - مهما يكن وضعها - لا تأخذ الأولوية في الدين.

ولقد لاحظت - للأسف الشديد - أن كثيراً ممن يدققون في تلك الأُمور الظاهرة وأمثالها - ولا أقول: كلهم - يغفلون هذا التدقيق، ولا يكترثون به في أُمور أشد خطراً، وأعمق أثراً، مثل بر الوالدين، وصلة الأرحام، وأداء الأمانات، ورعاية الحقوق، وإتقان العمل، وإعطاء كل ذي حق حقه، والرحمة بخلق الله، ولا سيما الضعفاء منهم، والتورع عن المحرَّمات اليقينية، إلى غير ذلك مما وصف الله به المؤمنين في كتابه، مثل أوائل سورة الأنفال، وأول سورة المؤمنين، وأواخر سورة الفرقان، وغيرها.

ولقد أعجبتني كلمة قالها الأخ الداعية الموفق الدكتور «حسان حتحوت» في أمريكا ينكر على بعض الأخوة المتحمسين، المشدِّدين على أنفسهم وعلى الناس في أُمور مثل اللحم الحلال المذبوح بطريقة شرعية قطعية، وتحريهم أشد التحري في ذلك، وتفتيشهم عن احتمال أن يكون في الطعام أثر من لحم الخنزير أو دهنه، ولو كان واحداً في المائة أو في الألف، وهو لا يبالي أن يأكل لحم إخوانه ميتاً في اليوم عدة مرات، حتى إنه يتصيَّد لهم الشبهات، أو يختلق لهم التهم، أو يصدِّقها ويشيعها إن لم يكن هو مختلقها.

* * *

(١) رواه الطيالسي والحاكم والطبراني في الكبير والأوسط عن ابن مسعود، وأحمد وابن أبي شيبة عن البراء، والطبراني عن ابن عباس (صحيح الجامع الصغير: ٢٥٣٩).

اختلاف الأفضل باختلاف
الزمـــان والمـكان والحـــال

وهنا نقطة ينبغي توضيـحها، وهي: أن الأولوية والأفضلية في كـثير من الأُمور لا تكون أولوية مطلقة في الزمان والمكان والأشخاص والأحوال، وإن تفاوتت.

بل الغالب أنها تتفاوت بتـفاوت المؤثرات الزمانية والبيئية والشخـصية، ولهذا أمثلة كثيرة.

● أفضل الأعمال الدنيوية:

فقد اخـتلف علماؤنا: أيّ هذه الأعمـال أفضل وأكثر مثـوبة عند الله: الزراعة أم الصناعة أم التجارة؟

والذي دعاهم إلى هذا الاختلاف ما ورد من أحاديث في فضل كل منها.

ففي فضل الزراعة جـاء حديث: «ما من مسلم يغرس غرسـاً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان أوبهيمة: إلا كان له به صدقة»(١).

وفي فضل الصناعـة جاء حديث: «ما أكـل أحد طعاماً قط خـيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده»(٢).

وفي فضل التـجارة جاء حـديث: «التاجر الصـدوق يُحشر مع النبـيين والصدِّقين والشهداء»(٣).

من أجل هذه الأحاديث وأمثالها وُجِد من العلماء مَن فضَّل واحدة من هذه الثلاث على ما سواها. ولكن المحققين من العلماء قالوا: لا نُفضِّل واحدة منهن بإطلاق، بل

---

(١) متفق عليه عن أنس (اللؤلؤ والمرجان: ١٠٠١).

(٢) رواه أحمد والبخاري عن المقدام (صحيح الجامع الصغير: ٥٥٤٦).

(٣) رواه الترمذي عن أبي سعيد في البيوع (١٢٠٩)، وحسَّنه في بعض النسخ، ورواه ابن ماجه عن ابن عمر في التجارات (٢١٣٩)، وفي إسناده راوٍ ضعيف.

التفضيل يكون بحسب حاجة المجتمع إليها.

فحيث تقل الأقوات، ويكون المجتمع في حاجة إلى غذائه اليومي الذي لا عيش له إلا به: تكون الزراعة أفضل من غيرها، لحماية الأمة من الجوع، الذي هو بئس الضجيع، وتوفير الأمن الغذائي لها، وخصوصاً إذا كان في الزراعة بعض المشقة والصعوبة، فالصبر عليها يكون من أفضل الأعمال.

وحيث تكثر الأقوات، وتتسع دائرة الزراعة، ويحتاج الناس إلى الصناعات المختلفة، للاستغناء عن الاستيراد من غير المسلمين من ناحية، ولتشغيل الأيدي العاملة من ناحية أخرى، ولحماية حرمات الأُمة وحدودها - بالنسبة للصناعات الحربية - من ناحية ثالثة، ولتفادي نقص الكفاية الإنتاجية للأُمة، من ناحية رابعة: هنا تكون الصناعة أفضل.

وحين تتوافر الزراعة والصناعة، ويحتاج الناس إلى مَن ينقل ما تنتجه هذه وتلك من بلد إلى آخر، فهو وسيط جيد بين المنتج والمستهلك. وكذلك عندما يسيطر على السوق التجار الجشعون المحتكرون والمستغلون لحاجات جماهير الخلق، والمتلاعبون بأسعار السلع: فهنا تكون التجارة أفضل، وخصوصاً إذا كان من الرجال الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة.

وأحوج ما تحتاج إليه أُمتنا في عصرنا، هو التكنولوچيا المتطورة، أن تدخل الأمة هذا العصر، وهي مسلَّحة بعلمه، غير غائبة ولا متخلفة عنه، فلا تستطيع الأُمة أن تنهض برسالة الإسلام الذي أكرمها الله به، وأتم عليها به النعمة،وأن تحمل دعوته إلى العالمين: وهي عالة على غيرها في أدوات العصر، وأسلحة العصر.

ولابد أن تطور مناهجها ونظمها التعليمية بما يحقق هذه الغاية، ويعيد إليها مكانتها العالَمية، يوم كانت لها حضارة متميزة، عميقة الجذور، باسقة الفروع، وأن تستشرف المستقبل، وتنظر إليه من خلال ما يطلبه منها الإسلام، وما ينشده أهله، وما يتطلع إليه العالَم من المعرفة به عقيدة ونظاماً وحضارة.

إن تحصيل هذه التكنولوچيا المتقدمة والتفوق فيها، وفي العلوم الموصلة إليها:

أصبح فريضة وضرورة، فريضة يوجبها الدين، وضرورة يحتمها الواقع. وهي في مقدمة الأولويات للأمة اليوم.

* *

• أفضل العبادات:

ومثل ذلك يقال بالنسبة لأفضل العبادات بالنسبة للفرد.

فقد اختلف العلماء في ذلك اختلافاً بعيداً، وتعددت أقوالهم وتباينت.

والقول المرجح عندي ما ذكره الإمام ابن القيم، وهو أن ذلك يختلف من شخص إلى آخر، ومن وقت إلى آخر، ومن مكان إلى آخر، ومن حال إلى آخر.

يقول الإمام ابن القيم في «المدارج»:

«ثم أهل مقام «إياك نعبد» لهم في أفضل العبادة وأنفعها وأحقها بالإيثار والتخصيص أربع طرق. فهم في ذلك أربعة أصناف:

الصنف الأول: عندهم أنفع العبادات وأفضلها: أشقها على النفوس وأصعبها.

قالوا: لأنه أبعد الأشياء عن هواها، وهو حقيقة التعبد.

قالوا: والأجر على قدر المشقة. ورووا حديثاً لا أصل له: «أفضل الأعمال أحمزها»[1] أي أصعبها وأشقها.

وهؤلاء: هم أهل المجاهدات والجور على النفوس.

قالوا: وإنما تستقيم النفوس بذلك. إذ طبعها الكسل والمهانة، والإخلاد إلى الأرض. فلا تستقيم إلا بركوب الأهوال وتحمل المشاق.

الصنف الثاني، قالوا: أفضل العبادات التجرد، والزهد في الدنيا، والتقلل منها غاية الإمكان، واطّراح الاهتمام بها، وعدم الاكتراث بكل ما هو منها. ثم هؤلاء قسمان:

---

(١) قال في الدرر تبعاً للزركشي: لا يُعرف، وقال المزي: هو من غرائب الأحاديث، ولم يرد في شيء من الكتب الستة، وقال القاري في الموضوعات الكبرى: معناه صحيح. واستشهد بما في الصحيح من حديث عائشة: «إنما أجرك على قدر نصبك» (انظر كشف الخفاء: ١/ ١٥٥).

فعـوامهم: ظنوا أن هذا غـاية، فشمـروا إليه وعـملوا عليه، ودعـوا الناس إليه، وقالوا: هو أفـضل من درجة العلم والعـبادة، فرأوا الزهد في الـدنيا غاية كل عـبادة ورأسها.

وخواصهم: رأوا هذا مـقصوداً لغيره، وأن المقـصود به: عكوف القلب على الله، وجمع الهمـة عليه، وتفريغ القلب لمحبـته، والإنابه إليه، والتوكل عليه، والاشـتغال بمرضـاته، فرأوا أن أفـضل العبـادات: في الجـمعـية على الله، ودوام ذكـره بالقلب واللسان، والاشتغال بمراقبته، دون كل ما فيه تفريق للقلب وتشتيت له.

ثم هؤلاء قسمان: فـالعارفون المتبعون منهم: إذا جـاء الأمر والنهي بادروا إليه ولو فرّقهم وأذهب جمعيتهم. والمنحرفون منهم يقولون: المقصود من العبادة جمعية القلب على الله. فإذا جاء ما يفرقه عن الله: لم يلتفت إليه. وربما يقول قائلهم:

يُطالَـب بالأوراد مَن كـان غـافـلاً فكـيف بـقلـب كل أوقـاته ورد؟

ثم هؤلاء أيضاً قسمـان: منهم مَن يترك الواجبات والفرائض لجمـعيته. ومنهم مَن يقوم بها ويترك السنن والنوافل، وتعلم العلم النافع لجمعيته.

وسأل بعض هؤلاء شيخاً عارفاً، فـقال: إذا أذَّن المؤذِّن وأنا في جمعيتي على الله، فإن قـمت وخرجت: تفرقـت، وإن بقيت على حالي: بقـيت على جمـعيتي، فـما الأفضل في حقي؟

فـقـال: إذا أذَّن المؤذِّن وأنت تحت العـرش فـقم، وأجب داعي الله، ثم عـد إلى مـوضعك. وهذا لأن الجـمعـيـة على الله حظ الروح والقلب، وإجـابة الداعي حق الرب. ومَن آثر حظ روحه على حق ربه: فليس من أهل «إياك نعبد».

الصنف الثالث: رأوا أن أنفع الـعبادات وأفضلهـا: ما كان فـيه نفع متعـدّ، فرأوه أفضل من ذي النفع القاصر. فـرأوا خدمة الفقراء، والاشتغـال بمصالح الناس وقضاء حوائجـهم، ومسـاعدتهم بالمال والجـاه والنفع: أفـضل. فتصـدَّوا له وعملوا عـليه، واحتجوا بقـول النبي ﷺ: «الخلق كلهم عيال الله، وأحبهم إليه أنفـعهم لعياله» رواه

أبو يعلي[1]. واحتجوا بأن عمل العابد قاصر على نفسه، وعمل النفّاع متعدٍّ إلى الغير. وأين أحدهما من الآخر؟

قالوا: ولهذا كان فضل العالِم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب[2].

قالوا: وقد قال رسول الله ﷺ لعليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: «لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حُمْر النعم»[3]، وهذا التفضيل إنما هو للنفع المتعدي. واحتجوا بقوله ﷺ: «مَن دعا إلى هدًى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه، من غير أن ينقص من أُجورهم شيء»[4]، واحتجوا بقوله ﷺ: «إن الله وملائكته يُصلُّون على معلمي الناسِ الخيرَ»[5]، وبقوله ﷺ: «إن العالِم ليستغفر له مَن في السموات ومَن في الأرض، حتى الحيتان في البحر، والنملة في جحرها»[6].

واحتجوا بأن الأنبياء إنما بُعثوا بالإحسان إلى الخلق وهدايتهم، ونفعهم في معاشهم ومعادهم. لم يُبعثوا بالخلوات والانقطاع عن الناس والترهب. ولهذا أنكر النبي ﷺ على أولئك النفر الذين هَمُّوا بالانقطاع للتعبد، وترك مخالطة الناس. ورأى هؤلاء التفرق في أمر الله، ونفع عباده، والإحسان إليهم: أفضل من الجمعية عليه بدون ذلك.

الصنف الرابع، قالوا: إن أفضل العبادة: العمل على مرضاة الرب في كل وقت بما

---

(١) رواه الطبراني في الكبير والأوسط عن ابن مسعود، ورواه أبو يعلي والبزار عن أنس، كلاهما بسند فيه متروك كما قال الهيثمي (٨/ ١٩١)، ورواه الطبراني في الثلاثة عن ابن عمر: «أحب الناس إلى الله أنفعهم للناس...»، وحسَّنه في صحيح الجامع الصغير (١٧٦).

(٢) كما في حديث أبي الدرداء الذي رواه أحمد وأصحاب السنن وابن حبان. كما في صحيح الجامع الصغير (٦٢٩٧).

(٣) رواه البخاري عن عليّ بن أبي طالب.

(٤) رواه أحمد ومسلم وأصحاب السنن عن أبي هريرة (صحيح الجامع الصغير: ٦٢٣٤).

(٥) روى الترمذي عن أبي أمامة مرفوعاً: «إن الله وملائكته، وأهل السموات والأرض، حتى النملة في جحرها، وحتى الحوت: ليُصلُّون على مُعلِّم الناس الخيرَ»، وقال: حسن صحيح غريب (٢٦٨٦)، ورواه الطبراني كما في المجمع: ١/ ١٢٤.

(٦) جزء من حديث أبي الدرداء السابق ذكره، مع اختلاف في اللفظ.

هو مقتضى ذلك الوقت ووظيفته، فأفضل العبادات في وقت الجهاد: الجهاد، وإن آل إلى ترك الأوراد، من صلاة الليل وصيام النهار. بل ومن ترك إتمام صلاة الفرض، كما في حالة الأمن.

والأفضل في وقت حضور الضيف مثلاً: القيام بحقه، والاشتغال به عن الوِرْد المستحَب. وكذلك في أداء حق الزوجة والأهل.

والأفضل في أوقات السَّحَر: الاشتغال بالصلاة والقرآن، والدعاء والذِكْر والاستغفار.

والأفضل في وقت استرشاد الطالب، وتعليم الجاهل: الإقبال على تعليمه والاشتغال به.

والأفضل في أوقات الأذان: ترك ماهو فيه من ورِْده،والاشتغال بإجابة المؤذِّن.

والأفضل في أوقات الصلوات الخمس: الجد والنصح في إيقاعها على أكمل الوجوه، والمبادرة إليها في أول الوقت، والخروج إلى الجامع. وإن بَعُد كان أفضل.

والأفضل في أوقات ضرورة المحتاج إلى المساعدة بالجاه، أو البدن، أو المال: الاشتغال بمساعدته، وإغاثة لهفته، وإيثار ذلك على أورادك وخلوتك.

والأفضل في وقت قراءة القرآن: جمعية القلب والهمة على تدبره وتفهمه، حتى كأن الله تعالى يخاطبك به. فتجمُّعُ قلبك على فهمه وتدبره، والعزمُ على تنفيذ أوامره: أعظم من جمعية قلب مَن جاءه كتاب من السلطان على ذلك.

والأفضل في وقت الوقوف بعرفة: الاجتهاد في التضرع والدعاء والذِكْر دون الصوم المضعف عن ذلك.

والأفضل في أيام عشر ذي الحِجَّة: الإكثار من التعبد، لاسيما التكبير والتهليل والتحميد. فهو أفضل من الجهاد غير المتعين.

والأفضل في العَشْر الأخير من رمضان: لزوم المسجد فيه والخلوة والاعتكاف دون التصدي لمخالطة الناس والاشتغال بهم، حتى إنه أفضل من الإقبال على تعليمهم العلم، وإقرائهم القرآن، عند كثير من العلماء.

والأفضل في وقت مرض أخيك المسلم أو موته: عيادته، وحضور جنازته وتشييعه، وتقديم ذلك على خلوتك وجمعيتك.

والأفضل في وقت نزول النوازل وأذاة الناس لك: أداء واجب الصبر مع خلطتك بهم، دون الهرب منهم. فإن المؤمن الذي يخالط الناس ليصبر على أذاهم: أفضل من الذي لا يخالطهم ولا يؤذونه.

والأفضل خلطتهم في الخير؛ فهي خير من اعتزالهم فيه، واعتزالهم في الشر؛ فهو أفضل من خلطتهم فيه. فإن علم أنه إذا خالطهم أزالة أو قَلَّله: فخلطتهم حينئذ أفضل من اعتزالهم.

فالأفضل في كل وقت وحال: إيثار مرضاة الله في ذلك الوقت والحال. والاشتغال بواجب ذلك الوقت ووظيفته ومقتضاه.

وهؤلاء هم أهل التعبد المطلق. والأصناف قبلهم أهل التعبد المقيد. فمتى خرج أحدهم عن النوع الذي تعلق به من العبادة وفارقه: يرى نفسه كأنه قد نقص وترك عبادته. فهو يعبد الله على وجه واحد. وصاحب التعبد المطلق ليس له غرض في تعبد بعينه يؤثره على غيره، بل غرضه تتبع مرضاة الله تعالى أين كانت. فمدار تعبده عليها. فهو لا يزال متنقلاً في منازل العبودية، كلما رفعت له منزلة عمل على سيره إليها، واشتغل بها حتى تلوح له منزلة أخرى. فهذا دأبه في السير حتى ينتهي سيره. فإن رأيت العلماء رأيته معهم، وإن رأيت العبّاد رأيته معهم، وإن رأيت المجاهدين رأيته معهم، وإن رأيت الذاكرين رأيته معهم، وإن رأيت المتصدِّقين المحسنين رأيته معهم، وإن رأيت أرباب الجمعية وعكوف القلب على الله رأيته معهم. فهذا هو العبد المطلق، الذي لم تملكه الرسوم، ولم تقيده القيود، ولم يكن عمله على مراد نفسه، وما فيه لذتها وراحتها من العبادات. بل هو على مراد ربه، ولو كانت راحة نفسه ولذتها في سواه. فهذا هو المتحقق: بـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] حقاً، القائم بهما صدقاً، مَلْبَسه ما تهيأ، ومأكله ما تيسر، واشتغاله بما أمر الله به في كل وقت بوقته، ومجلسه حيث انتهى به المكان ووجده خالياً، لا تملكه إشارة، ولا يتعبده قيد، ولا

يستولي عليه رسم، حرّ مجرد، دائر مع الأمر حيث دار، يدين بدين الآمر أنَّى توجهت ركائبه، ويدور معه حيث استقلت مضاربه، يأنس به كل محق، ويستوحش منه كل مبطل، كالغيث حيث وقع نفع، وكالنخلة لا يسقط ورقها، وكلها منفعة حتى شوكها، وهو موضع الغلظة منه على المخالفين لأمر الله، والغضب إذا انتُهكت محارم الله، فهو لله وبالله ومع الله، قد صحب الله بلا خلق، وصحب الناسَ بلا نفس بل إذا كان مع الله عزل الخلائق عن البين، وتخلَّى عنهم، وإذا كان مع خلقه عزل نفسه من الوسط وتخلَّى عنها. فواها له! ما أغْربَه بين الناس! وما أشدَّ وحشته منهم! وما أعظم أُنسه بالله وفرحه به، وطمأنينته وسكونه إليه!! والله المستعان، وعليه التكلان»[1].

* * *

(١) مدارج السالكين: ١/ ٨٥ - ٩٠، طبعة السنة المحمدية.